

الأسرة كعائل في التربية

للاستاذة أسماء فهمي

الأستاذة بمعهد التربية العالي للبات

لاشك أن البحوث القيمة التي سبقت كلمتي هذه في موضوع الأسرة قد أظهرت بجللاء خطورة الدور الذي تلعبه الأسرة في نواحي الحياة الهامة بصفتها عماد المجتمع والأصل في تنظيم حياة الفرد والأمة . ومهما كثرت البحوث في موضوع الأسرة فسيبقى في كل وقت مكان لزيادة زيدها كل باحث خصوصاً في بلادنا التي أهمل فيها لسوء الحظ شأن الأسرة فأصبحت في حالات كثيرة بيت الداء وقد كان ينبغي أن تكون دائماً معقل القوة والحياة والأمن والرجاء .

ولعل وظيفة الأسرة في التربية هي أخطر وظائفها وأجدرها بالعناية . فالتربية هي وظيفة الأسرة الأصلية ، والمنزل هو مدرسة الطفل الأولى ، وقد كان في الأزمان الخالية المدرسة الوحيدة التي يتعلم فيها ما يتصل بالروح كالدين ، وما يتعلق بالخلق والدفاع عن الحياة وكسب العيش . وبالرغم من تعدد المنشآت التربوية والتعليمية والمهنية التي تضطلع بعضها بالعناية بالطفل حتى قبل ولادته لم تفقد الأسرة بعد مركزها كأهم عامل للتربية ، ومهما بلغ من تقدم تلك المنشآت ونجاحها في أساليب التربية والتعليم فلا يمكن في الغالب أن تحدث من الأثر في نفوس اللشء ما يحدثه المنزل الصالح في سنوات قلائل ، كما أنه قد لا يتيسر لها مع كل مهارتها وجاهاها ومسطوتها أن تحو تماماً في حالات كثيرة كل الآثار السيئة التي تنتج عن تربية أسرة معوجة في مرحلة الطفولة .

أما الأسباب التي تجعل الأسرة أهم الوسائط التربوية وأخطرها فيمكن إرجاعها إلى الأمور الآتية :

كون الأسرة بيئة الطفل الطبيعية ، فالطفل هو محور الأسرة وبدونه لا يعتبر تكوينها كاملاً ، وفي الأسرة يحصل الطفل على أهم عوامل النمو الوجداني بطريقة قل أن نجد لها مثيلاً في غير الأسرة . وأهم تلك العوامل المحبة الوالدية التي هي غريزة من أقوى وأجمل

الغرائز الإنسانية . تبدأ تلك الغريزة عملها عند المرأة وتظهر مكنون قوتها والطفل لم يزل بعد جنينا ، وإذ يولد الطفل تتضاعف قوتها فتفيض المرأة بالحنان والرحمة على وليدها ، وتجسد تلك الغريزة إشباعا ولذة في تدليل الطفل والعناية به والتضحية من أجل هناعته ، وقد لا يكون هناك ألم أعظم من الألم الذى يشعر به الأم عند فقد طفلها ، لأنها تصاب في ناحية من نواحي نفسها هي من أشد النواحي حساسية ، وقد قضت الطبيعة بذلك الحكمة بالغة : فطفولة الإنسان أطول طفولة بين المخلوقات ، إذ بينما يكتمل نمو أكثر المخلوقات في بضعة أيام أو بضعة أشهر لا يكتمل نمو الطفل قبل عدة سنوات ، وفي تلك المدة الطويلة يعتمد الطفل كل الاعتماد على رعاية أمه وحنانها ، وذلك الحنان الغريزي يضع الأساس لجعل لأم خير المربيات ، ولحمل البيئة المنزلية أفضل البيئات لتربية الطفل في المرحلة المبكرة بصفة خاصة . وذلك لأن للطمأنينة التي يشعر بها الطفل في ظل الحنان الوالدى أكبر الأثر في نمو الطفل وسعادته . والطفل الذى يحرم الطمأنينة والسعادة التي تسبغها عليه المحبة الوالدية يبدو معتلا شقيا وفي حالات كثيرة يقع فريسة للشنوذ الخلقى . وهناك حالات عدة يسجلها الأطباء النفسانيون تبين بجلاء أن فقدان العطف يؤثر تأثيرا سيئا في نمو الطفل العقلى والوجدانى كما قد يضر بصحته ، بعكس الطفل الذى ينشأ في ظل الحنان فهو يستقبل الحياة بثقة واطمئنان بينما يدفعه حرصه الطبيعى على الاحتفاظ بتلك الرعاية إلى بذل كل ما وسعه لإرضاء من يسبقون عليه العطف ، وبذلك يتجنب كثيرا من العيوب والأخطاء التي يشعر أنها ستؤدى إلى نفور من يعنون بأمره . ومن هنا نبتين أهمية العطف الوالدى للنمو والتهديب الخلقى بصفة خاصة . حتى أن فائدة المحبة الوالدية في هذه الناحية لا ينبغي أن ننسى ما قد ينشأ عنها من مضار إذا لم يحسن توجيهها ، وكلنا يعرف تقائص الطفل المدلل الذى يفسده الثغالى في الحنان كما يفسده الثغالى في النعيم والرفاهية ، كما لا ننسى ما قد يصيب بعض الأطفال المدللين من الأمراض النفسية القوية إذا اضطروا لمفارقة أسرهم في وقت من الأوقات . بل قد يصاب بتلك الأمراض بعض الراشدين فيحدث مثلا ألا تنقوى الفتاة بعد زواجها على فراق أسرتها ، لشدة تعلقها بها مما يؤدى إلى فساد حياتها الزوجية ، كما قد يمتنع بعض الآباء والأمهات عن السماح لأولادهم بالبحث عن الرزق في بلاد بعيدة حرصا على بقائهم بالقرب منهم . وعلى ذلك تكون المحبة الجارحة المتطرفة عاملا من عوامل ضعف الأبناء وتأخرهم ، على أن ذلك عيب ليس من الصعب علاجه عن طريق التوجيه والإرشاد ، أما المتاعب والأمراض الخلقية التي تنشأ عن قلة العطف فعلاجها أكثر صعوبة .

أما العامل الثانى الذى يكسب الأسرة أهميتها كعامل تروى قوى فيرجع إلى كونها أصلح ميدان لتنمية جملة فضائل يصعب في الواقع تميها بسهولة في غير جو الأسرة ، ومن هذه الفضائل الاخلاص والتضحية والثقة بالغير والتعاون ، تلك الصفات التي تعتبر حجر الزاوية

في بناء الأسرة، والتي تعتبر الأسرة البيئة الطبيعية لنموها، فإخلاص الزوجة للزوج وارتباط أفراد الأسرة برابط المحبة ولطف وتفهمية الأم والأب في سبيل سعادة الأطفال وتعاون الجميع في العمل تحت لواء الثقة والمودة، كل ذلك من مميزات الحياة لعناية التي تكون الصلات وثيقة بالضرورة بين أفرادها، ويصعب أن نلمسها بالوضوح الذي نلمسها به في المحيط العائلي . ومن ثم كانت الأسرة أفضل عامل لتربية ما يمكن اعتباره من أهم الفضائل الاجتماعية بطريقة طبيعية لا تكلف فيها ولا مشقة . على أننا لا ننكر طبعاً أن الفضائل المذكورة قد تنمو في بيئات أخرى كالمدارس والحدائق مثلاً ، ولكن من الحق أن نقول إن تلك من مميزات الأسرة قبل غيرها وأن نشأتها الأولى ترجع إلى الأسرة .

وليس معنى ذلك أن الأسرة ميدان للفضائل فقط، بل الواقع أن الطفل قد يلتقط كثيراً من العادات الفسادة والزائل عن طريق الأسرة إذا خبث تكوينها ، ولكن الأسرة بحكم تكوينها تتطلب التعاون والثقة والوفاء، وهذا مما يرجح كفتها في ميدان الخير ويجعلها أفضل واسطة لغرس المبادئ السامية في نفس الطفل بتليل من العناية، خصوصاً إذا راعينا أن الطفل يقضي من حياته المبكرة بين جدران الأسرة ويكون في تلك المرحلة شديد الحساسية سريع التأثر والتشكل لمرونة جهازه العصبي فتأثر تأثراً قوياً بنمو الأسرة . ومما يساعد على ذلك أيضاً قابلية الطفل الشديدة في هذه المرحلة للتقليد والإيحاء والمشاركة الوجدانية وهي عوامل قوية تزيد من سرعة امتصاص الطفل للمبادئ والعادات المحيطة به ، ثم إن الطفل لشدة تعلقه بأفراد أسرته يكون بالضرورة أكثر قابلية لتقليدهم واتخاذهم مثلاً له ، ومما ذكره يبدو واضحاً قوة أثر المنزل في التوجيه الخلقي وهو يمتاز في هذه الناحية على بيئات التربية الأخرى .

هذه بعض العوامل الهامة في التربية التي شعرت أنها لا تظهر بنفس القوة في بيئات التربية الأخرى، وقد رأيت أن أشير إليها في هذه المناسبة بعد أن قرأت في بعض كتب التربية الحديثة عن المنشآت المختلفة التي أخذت تنافس الأسرة في الغرب تحت تأثير التغييرات الاقتصادية والاجتماعية مما لا يستبعد أن ينتقل البناء منها . فنظراً لاشتغال كثير من النساء في المصانع وغيرها واضطرارهم إلى ترك منازلهم من الصباح الباكر حتى المساء قامت منشآت عدة تتولى العناية بالطفل من ساعة ولادته وبعضها ينسلم الطفل بعد العام الثاني ويقضى في تلك المعاهد اليوم بأكمله حتى تعود الأم من عملها فتحمله معها . ويلحق الطفل في هذه المعاهد كثيراً من العناية حيث يشرف على تنشئته المختصات من النساء ، ولكن مهما بلغت العناية بالطفل في هذه المعاهد فاتها تفتقر إلى نواحي هامة لا تتوافر في غير الأسرة، وهي وإن كانت تفضل المنازل المهجورة الخالية من الأمهات والمنازل الفقيرة المنحطة إلا أنها لا يمكن أن تجاري المنزل الصالح في تنشئة الأطفال . ومن الخطأ في الواقع أن نرى تلك المنشآت التي قد تسهل على الأم ترك وظيفتها الأصلية كما تفقد المنزل عنصراً من أهم عناصر بهجته بينما

لا تقدم للطفل كل ما يتطلبه نموه العقلي والروحي من عطف وحب في حين تحول تلك المعاهد بين الآباء والأمهات وبين اكتساب صفات هامة وخبرة عظيمة يحصلون عليها أثناء قيامهم بالإشراف على تربية أطفالهم .

فالإصلاح الحقيقي لذلك لا يكون عن طريق حرمان الأسرة التي لا تتوافر فيها شروط التربية من الإشراف على تربية الأطفال ، وإنما الإصلاح الحقيقي يأتي عن محاولة جعلها قادرة على تأدية وظيفتها الطبيعية وإزالة العقبات من سبيلها ، لأنها إذا صلتحت كانت أصاح البيئات للعناية بالأطفال .

وهنا نواجه السؤال الآتي : إلى أي حد تعتبر الأسرة المصرية بيئة صالحة للتربية ؟ والإجابة على هذا السؤال تستدعي استعراض أهم الشروط اللازمة لصلاحية الأسرة للقيام بالتربية ويمكن حصرها فيما يأتي :

(١) محبة الأطفال والرغبة في وجودهم .

(٢) الكفاية المادية والخلقية .

(٣) توافر جو من الاطمئنان والثقة بين جدران المنزل .

أما بخصوص الشرط الأول فتوافره لا شك فيه ، ومما يسترعى نظر الأجنبي في مصر شدة تعلق الآباء والأمهات بالأطفال ، وإذا كان هناك ما نشكو منه في هذا الصدد فهو المغالة في العطف والتدليل مما ينشأ عنه تأخر الفطام النفسى للطفل ، وشدة اعتماد الآباء على الآباء مما يضعف روح المغامرة والاستقلال في النشء .

أما الكفاية المادية والخلقية فليسوء الحظ لا نجد لها متوافرة . فن الناحية المادية نقول إن ما يقرب من ٨٠٪ من المصريين على جانب عظيم من الفقر ، والفقر في الواقع هو داء هذا البلد العضال الفتاك الذى يعتبر مصدرا لأكثر العلل والأدواء . والإحصاءات تدل على أن نحو أربعة ملايين شخص يعيشون بإيراد يقل عن جنيه واحد في الشهر ، وأن خمسة ملايين ونصف مليون لا يزيد إيراد الفرد منهم على ثلاثة جنيهات شهريا . وقد قامت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية أخيرا ببحث حالة الفقر في الأسر المصرية في جهات مختلفة ، فبين لها أن من بين ٣٣٣٣ أسرة درست ١٧٣٤ أسرة أى ٥٠٪ تنفق أقل من ٢٠٠ قرش في الشهر ، من بينها ١٣٧ أسرة تنفق أقل من ٦٠ قرشا و ١٦٤ تنفق من ٦٠ - ٧٩ قرشا و ٣١٢ تتراوح نفقاتها بين ٨٠ و ٩٩ قرشا . هذه الأرقام البسيطة تعطينا فكرة واضحة عن مبلغ فقر الأسر في بلادنا . ولا يخفى علينا ما لشدة الفقر من أثر سيئ في صحة الطفل الجسمية والعقلية والخلقية ... تلك هى مشكلة المشاكل في التربية ، ولا أمل لنا في الإصلاح قبل أن تتحسن حالة الأسرة من هذه الناحية

بقي أن أقول شيئاً عن العامل الأخير، وهو توافر جو من الاطمئنان والثقة داخل المنزل. هذا الشرط لسوء الحظ يحول دون وجوده في حالات كثيرة كثرة المنازعات العائلية التي يسببها الفقر من جهة، وسهولة الطلاق وتعدد الزوجات من جهة أخرى بين الطبقات الجاهلة الفقيرة. وينتج عن ذلك بالضرورة فقدان روح الثقة والاطمئنان وتفكك الأسرة، فينشأ الطفل في جو مظلم مضطرب لا يجد فيه ما يحتاج إليه نموه من حنان ورعاية فوق ما يتناسب من الجوع والحرمان. وسرعان ما يقذف به المنزل المضطرب إلى الشارع فيكون كالمتجبر من الرمضاء بالنار، وفي الشارع يصبح الطفل عرضة للغواية وهو لم يتروّد بوسائل الدفاع والوقاية، فيرتكب الشرور ويعيث في الأرض فساداً. وتدل على هذه الحقيقة دراسات جرائم الأحداث التي تبين أن أهم أسباب التشرّد والإجرام يرجع إلى التفكك وعدم التآلف العائلي. وأظن أن أقل ما ينبغي عمله في الوقت الحاضر منع تعدد الزوجات، وتقيد الطلاق حتى نحدد النسل من جهة، ومن جهة أخرى نقضي على بعض عوامل التفكك والنزاع العائلي الذي يكسب الطفل شرسة الخلق ويفقده إيمانه بالحياة.

والآن أخشى أن تؤدّي الحقائق المرة التي ذكرتها إلى ضعف ثقتنا بقيمة أغلب الأسر المصرية كعامل تربوي. ولكن تأخر الأسر المصرية وعجزها عن القيام بوظيفتها في الوقت الحالي لا ينبغي أن يفقدنا إيماننا بأن الأسرة هي أفضل وأقوى عوامل التربية، وإن هذا الإيمان ليحتم علينا أن نعمل جادين مخلصين للأخذ بيد الأسر المصرية الجاهلة الفقيرة عن طريق التعليم وفتح موارد جديدة للرزق ومن القوانين لحماية الأسرة. ثم نضيف إلى ذلك نشر القواعد الصحيحة للتربية، لأن تربية الأطفال ليست من السهولة بحيث تتركها تعالج بطريق المحاولة والخطأ.

أسماء فهمي